دور السودان في نهضة اللغة العربية وتعليمها في نيجيريا (كنو نموذجا)

أ. د. محمد الرابع أول سعد

كان العلم أرسى دعائم التقدم في كل أمة وفي كل زمان و مكان، و الأمم لا تعيش بمعزل عن أشقائها و أقربائها و صديقاتها، "يا أيها الناس إنا خلقناكم و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفو، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير". يهدف هذا المقال إلى تسليط الأضواء على إحدى الجوانب المثمرة في العلاقة السودانية النيجيرية وهي؛ دور السودان في نهضة التعليم العربي في نيجيريا لاكتشاف و إظهار النتائج المحصولة في هذا الجانب. ومن ظواهر مساهمة السودان في نهضة التعليم العربي و ازدهاره في نيجيريا.

التعريف بمنطقة بلاد السودان (تكرور) قديما

تكلم كثير من الباحثين قديما وحديثا حول منطقة بلاد السودان، والتي يسميها البعض "بلاد التكرور" محاولين التعريف بها وبجغرافيتها، فسأورد – هنا – بعض ما قاله هؤلاء الباحثون، حتى يتسنى لنا الفهم الصحيح للمنطقة ولعنوان البحث، ثم أتطرق إلى إلقاء الضوء في مساهمة هذه المنطقة في الثقافة العربية. فأبدأ بما قاله الشيخ محمد بللو بن عثمان بن فوديو في كتابه: "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور"

"واعلم أن هذا الإسم الذي هو التكرور، علم على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني على ما فهمنا من تعبيرهم في التواريخ والنقول. وهذا الإسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة، ومندرس في محله حتى لا يعرفه أهل هذه البلاد أصلاً وإنما يتلقونه من الحجاج الذين سموه١ بالحرمين ومصر.

ورأيت لمجدد الدين "الفيروزبادي" في القاموس أنه بلد بالمغربي ورأينا لبعضهم أنه عبر عن كنو وكظينا٢ وما والاهما ببلاد السودان، وعبر عن تمبكت وما والاها ببلاد التكرور.

وأول هذه البلاد – بلاد السودان – من جهة المشرق على تعبيرهم؛ بلد فور، ويليه من جهة المغرب بلد بَاغِرْمِي. وحدودها من الشمال الصحراء الكبرى، أو بلاد البُزّ والطوارق، وحدودها من الجنوب بلاد المجوس أو القبائل المواذية للمحيط الأطلنطي ... ومن الغرب بلاد بَرَغُو.١

وفي الجزء الثاني عشر من دائرة المعارف الإسلامية، حين الكلام عن بلاد السودان، أوردوا ما مضمونه، أن هذه الكلمة تعني.

(١) بلاد السودان.

(٢) جميع البقاع التي يقطنها السود من قارة٢أفريقيا.

(٣) المنطقة الشبه الصحراوية من إفريقيا التي تغلغل فيها الإسلام، وهي ثلاثة أقسام:

أ- السودان المغربي، ويشمل حوض نهر السنغال ونهر غمبيا، والمجري الأعلى لنهر فولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر.

ب- السودان الأوسط، ويشمل حوض بحيرة تشاد.

ت- السودان الشرقري، أو السودان المصري، ويشمل الحوض الأعلى لنهر النيل.

(٤) ما يشمل جميع الأراضي التي إلى الجنوب من الصحراء الكبرى وصحراء ليبيا، أي من المحيط الأطلسي غربا، إلى الحدود الغربية الأثيوبيا (الحبشة) شرقا، وتُسَايِرُ حدوده الجنوبية – بصفة عامة – خط عرض شمالا".٢

ويقول شيخ أحمد سعيد غلادنثي حين تحديده لمنطقة بلاد السودان: "هي منطقة واسعة، تمتد من حدود الصحراء الكبرى إلى ما يعرف بنطاق الغابات الوسطى جنوبا، ومن تلال الحبشة شرقا، إلى المحيط الأطلنطي غربا".١

ويقول الأستاذ محمد الظريف:

"يقصد بالسودان – هنا – المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الصحراء

الكبرى من إفريقيا السوداء، الممتدة من السنغال إلى نيجيريا وليس جمهورية السودان الحالية.٢.

فمن هذا السرد القصير لأقوال بعض المؤلفين، نفهم أن الذي يُعنى به بلاد السودان، بأحدث مفهوم، وبعبارة موجزة هو: إقليم غرب إفريقيا، بما فيه جزء من موريتانيا وبعض مناطق وسط إفريقيا، وتنقسم إلى قسمين بشكلها الطولي:

أ- السودان الأوسط. ويشمل حوض بحيرة تشاد شرقا إلى آخر الحدود الغربية لدول هوسا.

ب- السودان الغربي. وهي بلاد التكرور (التكلور) من المحيط الأطلنطي غربا إلى حدود دول هوسا شرقا، حيث الحدود الغربية لجمهورية نيجيريا حاليا.

وهذه المنطقة، بإثبات من دارسي الحفريات الأثرية (Archeologist) من أقدم مناطق العالم.١ وكانت من أشهر أقاليم إفريقيا قديما وحديثا، ومن أكثرها وأغناها الثروة المعدنية وغذائية، كما توجد بها آثار علمية وثقافية تدل على حضارتها وتمدن أهلها. كما كانت أكثر باقي مناطق القارة الإفريقيا إزدحاما وعمارة بالسكنى.

من ظواهر المساهمة :

التعاون لتأسيس المدارس العربية النظامية الحديثة و تعزيزها:

بعثت الحكومة الاستعمارية مِست هَنسْ بيشَر١ (Hanns Vischer) إلى البدان الإسلامية التي تحت الإستعمار البريطاني ليرى طبيعة التعليم هناك. فزار مصر والسودان، وجال في الكتاتيب والمدارس الإسلامية الإبتدائية والثانوية ومعهد تدريب المدرسين، وهذا في فبرير ١٩٠٩م. وبعد عودته فتحت هذه المدرسة في كنو٢ لمرحلة الإبتدائية المتوسطة×.

وقال الدكتور علي أبوبكر: "وكانت بَرْنُوْ أول إمارة فكرت في تطوير الثقافة العربية بالاستعانة بعلماء من خارج نيجيريا (سودان). ففي عام ١٩٢٧ طلبت من الحكومة المركزية أن تسمح لها بإيفاد ثلاثة مدرسين من السودان ليفتحوا مدرسة يجري التدريس فيها باللغة العربية٣" وقال أفاد الدكتور أيضا أنه في عام ١٩٣٠م أنشأت كل من ولاية سكوتو و كنو مدرسة الشريعة الإسلامية الكبرى، يجري التدريس فيها بالعربيةن بهدف تحريج الكتاب و القضاة وغيرهما من موظفي المحاكم الشرعية.٤

وقد أسند تدريس بعض المواد العربية إلى الأساتذة السودنيين إضافة إلى الأساتذة الوطنيين. و كانت ثمار تدريس هذه الكوكبة من الأساتذة قد أينعت. أنتجت هذه المدرسة النخبة الأولى من حملة الشهادة العربية الذين ساهموا مسامهة مثمرة جدا في بناء السرح التعليمي في نيجيريا وما جاورها، و أنتجت علماء عالمي المستوى في العلم و الدعوة الإسلامية، أمثال أبوبكر محمود غمي.

إيفاد الأساتذة إلى نيجيريا :

من ظواهر دور جمهورية السودان في دفع عجلة تقدم التعليم العربي في نيجيريا. موافقة حكومة جمهورية السودان لطلب حكومة نيجيريا في إيفادة أساتذة و قضاة للتدريس في مدرسة الشريعة الكبرى في كنو و غيرها. وذلك أنه اقترحت حكومة نيجيريا تأسيس مدرسة واحدة للشريعة، يلتحق بها الطلبة من جميع الإمارات النيجيرية، " واقترحت أيضا أن يأتي أساتذة هذه المدرسة من السودان، و أن تكون لهم الحبرة بالشريعة الإسلامية. فقدمت الحكومة الطلب، و وافقت السودان بانتداب ثلاثة من قضاتها و فتحت المدرسة ١٩٣٤م. والوفد يشمل الشيخ بشير الريح،٥ والشيخ محمد سوار الذهب و الشيخ النور التغازي. وبعد رجوع الأخيرين إلى السودان عام ١٩٤١م خلفهما الشيخ أحمد محمد عوض و الشيخ عبد المجيد. ومنهم الشيخ عبد القادر والشيخ الطيب٦.

البعثات التعليمية من حكومة نيجيريا :

قد بعثت حكومة نيجيريا الطلبة إلى السودان لمواصلة الدراسة الجامعية. وكذا قد بعث بعض أولياء أمور الطلبة كونت نواة حملة الثقافة العربية الأُوَلى في نيجيريا، الذين أناروا ربوعها بالعلم و المعارف و التأليف و تأسيس الحلق العلمية و المدارس. ومن ثمرات هذه البعثات إلى السودان وجود كبار العلماء والشيوخ أمثال؛ الشيخ المرحوم أبوبكر محمود غُومِي والشخ خضر بِنْج، والشيخ بشير لِيمُوْ. وحسن إبراهيم غُوْرَزُوْ و الشيخو أحمد سعيد غَلادَنْثِي. و كانت بعثتهم إلى معهد بخت الرضا و درسوا اللغة العربية والقضاء والدراسات الإسلامية. و كان من ضمنهم أول من شغل منصب قاضي قضاة شمال نيجيريا، وهو الشيخ محمود غمي.

إنشاء المدارس و المعاهد والكليات:

مما ساهم به السودانيون في نهضة

التعليم العربي في نيجيريا، تأسيس المؤسسات التعليم العربي و الإسلامي و التربوي. هذا بالإضافة إلى تعاونهم في تسيير أمثالها التي أسستها الحكومة، فمن تأسيس معهد الشيخ إبراهيم الطيب لتدريب معلمي اللغة العربية أثناء الخدمة. و قد أسس في الثمانينات في كنو منذ اكثر من سبعة عشرة سنة مضت و ما زالت أنشطته العلمية في تطور، وصلت إلى مختلف الولايات النيجيرية. و يجري برامج علمية أكاديمية مختلفة، منها برنامج دبلوم الوسيط، في تكوين اتذة تدريس اللغة العربية. و منها برنامج الحصول على شهادة مرحلة التعليم العربي الإسلامي الثانوي، و منه برنامج تعليم اللغة العربية للمبتدئين. كما استضاف المعهد برنامج البكالوريوس في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها بالتعاون مع معهد الحرطوم الدولي للغة العربية.

وهناك دور منظمة الدعوة الإسلامية، السودان في كنو، التي أنشأت معهدا في محلية كور فب كنو، وله برنامج دبلوم الوسيط، في تدريس اللغة العربية، و منها برنامج الحصول على شهادة مرحلة التعليم العربي الإسلامي الثانوي، وله برنامج محو الأمية للسيدات في مقره، بشارع أمين كنو، حي ثاني مي نغي.

وكالة الإغاثة للعالم الثالث لها برنامج دوري في عقد دورات و ورش عمل في تطوير كفاءة مدرسي اللغة العربية و الثقافة الإسلامية في التعليم الأساسي. و قد عقدت هذه الدورات بمختلف محليات بولاية كنو خلال أربعة أعوام مضت ٢٠١٠ إلى ٢٠١٤م

تأسيس مجمع مدارس الشيخ البشير الريح، بشارع أمين كنو في حي غورون دوظي. و التي يدرس اللغة العربية وغيرها من التخصصات. و تضم مراحل التعليم المختلفة من الروضة و الابتدائية و الثانية. يدرس فيها البنين و البنات.

إنشاء المكتبة العلمية :

تم إنشاء المكتبة لبيع الكتب العربية و الإسلامية ، التي ظلت عشرات السنين في تصدير الكتب النادرة والكتب المدرسية لتلبية متطلبات دارسي اللغة العربية. وتوفير المقررات المنهجية للمواد الدراسية في مختلف المراحل التعليمية العربية والإسلامية. كان مقر هذه المكتبة في سوق كَنْتِنْ كُورِي كنو Kantin Kwari Maket

و من نماذج الكتب المدرسية التي وفرته المطبعة

تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات

القاموس العصر العربي الإنجليزي لأنطوان إلياس

قاموس الجيب العربي الإنجليزي

دروس في التاريخ الإسلامي في خمسة أجزاء لأحمد طه محمو

الدروس النحوية في ثلاثة أجزاء

النحو الواضح للمرحلة الإبتدائية في ثلاثة أجزاء

البلاغة الواضحة لعلي الجارم و غيره

دليل البلاغة الواضحة

ميزان الذهب في العروض لأحمد الهاشمي

إنشاء المطبعة

إنشاء المطبعة لطباعة الكتب العربية و الإسلامية، منها مطبعة أحمد أحمد أبو السعود و عثمان الطيب التي ساهمت كثيرا في طباعة المقررات المدرسية العربية النيجيرية وقد نشط ذلك المؤلفين الوطيين النيجيريين في التأليف، كما وفرت بعض الكتب المقررة في السودان والأزهر التي تعادلت بمستوى التعليم العربي النيجيري الثانوي. ومن الكتب المدرسية التي وفرته المطبعة:

النحو الواضح الثانوي في ثلاثة أجزاء

المنتخب في الأدب العربي الثانوي في ثلاثة أجزاء

سمير الطالبين

المطالعة

شرح أم البراهين

وعشرات كتب أخرى.

النشر الأكاديمي لصالح التعليم العربي النيجيري:

لبعض الأساتذة المتخصصين اللغويين السودانيين منشورات علمية حول أوضاع اللغة العربية من مختلف جوانبها التاريخية و الأدبية و التعليمية التعلمية. كما لهم عناية خاصة أكبر من غيرها من الدول العربية في العناية بالإنتاجات العلمية للتراث العربي في نيجيريا. حيث عقدوا مؤتمرات وندوات وورش عمل حول الإنتاجات العليمة العربية في نيجيريا. مثل مؤتمر حول التعرف على انتاجات الفوديين. وكذا كتبت عديدا من المقالات حول تأثير المتبادل بين اللغة العربية و الهوسية في أعداد من المجلة العربية للدراسات اللغوية، معهد الخرطوم الدولي.

إدارة ورءاسة مؤسسات تعليم العربي:

كانت باكورة إدارة مؤسسات التعليم

العربي و الإسلامي الحكومية الحديثة و كذا رءاسة في نيجيريا، على أيدي تربويين من أساتذة اللغة العربية السودانيين. فكانت رءاسة مدرسة الشريعة الكبرى (المعروفة اليوم بمدرسة العلوم العربية) على يد الشيخ عوض ١٩٣٢٧م

فمن أرقى المدارس العربية التي أدارها السودانيون جامعة بايرو، وقد كان رئيسها الأول: الشيخ عبد الله الطيب من السودان. وكان تأسيسها عام ١٩٦٤م بمستوى الكلية الجامعية، وهي كلية عبد الله بايرو كنو، التابعة لجامعة أحمد بيللو زاريا. وبهذه الكلية قسم اللغة العربية. وقد كانت إدارته لهذه الجامعة مكّن لها الريادة والامتياز في الدراسات العربية و مباحثها في نيجيريا و ما جاورها.

ومن الدور رءاسة قسم الدراسات العربية بجامعة سكوتو (١٩٧٦ – ١٩٨٢م للأستاذ مصطفى معز الدين الدسوقي.

تطوير العلاقات العلمية التعاونية بين جامعات البلدين:

بلورت العلاقة العلمية الثقافية بين الجامعات النيجيرية و الجامعات الصديقة بالسودان في المجالات العلمية العربية و الإسلامية والتخصصات الأخرى، وكذا في المصالحة الأخرى المشتركة. وهي علاقة فاقت غيرها بالمقارنة إلى مثيلاتها في الدول العربية الأخرى. وبما أن العلاقة العلمية قائمة بين البلدين منذ عهد بعيد بصفة رسمية منذ الإستعمار، وقد تم بلورة هذه العلاقات وتجديدها وتطويرها على مستوى الجامعات و المعاهد. و هذا المؤتمر من ثمار نمو هذه العلاقات التي تم عقدها بين جامعة بايرو كنو و جامعتي دلنج وأم درمان الإسلامية بالجمهورية السودانية.

عقد الشراكة بالتعاون الثقافي

الذي من ثمراته إجازة التفرغ من أساتذة الجامعات مثل الدلنج، و إقامة المؤتمرات بين جامعات البلدين في مختلف التخصصات العربية و غيريها.

تبادل الزيارات العلمية:

مثل زيارة مديري جامعة أم درمان الإسلامية، ودلنج، و الشيخ يوسف الخليفة من معهد الحرطوم الدولي بالسودان. إلى حرم جامعة بابرو كنو نيجيريا، في العام الدراسي الماضي ٢٠١٤م وتم في الزيارة إبرام اتفاقيات محتلفة بين الجامعات.

توفير المنح الدراسية من مختلف الهيئات

والمؤسسات للطلبة النيجيريين، للدراسة الجامعية في السودان. والتي استفاد بها عشرات النيجيريين.

الخاتمة:

بمناسبة ختام هذا البحث أنتج البحث النتائج التالية:

- أن علاقة نيجيريا بالبلدان العربية قديمة وخاصة السودان ومصر المغرب العربي والسعودية والعراق.
- أن للسودانيين اليد الطولى في التعاون لتأسيس الدراسات العربية الحديثة ونهضتها في نيجيريا.
- ما زالت العلاقة العلمية بين البلدين تسير على وتيرة جيدة، وخاصة بتعزيز التنسيق التعاوني الثقافي بين المؤسسات العلمية العليا في البلدين.
- يرجو البحث توسيع دائرة التعاون الثقافي الموجود بين جامعات البلدان السودان ونيجيريا ليشمل قدرا كبيرا من البلدان العربية، بتبادل الزيارات العلمية وفهارس البحوث والدراسات والتعاون في عقد الندوات.
- ينبغي تعيين المتخصصين بأقسام اللغة العربية بجامعات الدول العربية كممتحنين خارجيين، للبحوث المنجزة حول الدراسات العربية النيجيرية في البلدان العربية.

الهوامش

١ الأصوات: سمعوه، بدلا من سموه والله أعلم. .

٢ هما من أقدم مدن بلاد السودان، وكانا في شمال نيجيريا حاليا.

٣ محمد بيللو: إنفاق الميسرور في تاريخ بلاد تكرور. ص،٢٣-٢٥، ط القاهرة ١٩٧٤م بتصرف.

٤ عبد الحميد يونس وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، ج: ١٢، ط. ٣، دار الفكر، ١٩٣٢م. ص: ٣

٥ شيخو أحمد سعيد غلادنثي؛ حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، الطبعة الثانية، الرياض، ص:٢١.

٦ محمد الظريف؛ التواصل بين المغرب والسودان خلال القرنين (١٠-١١) الهجريين، مقالة في منتدى عقد بمراكش تحت إشراف منظمة (ISESCO) بتاريخ ٢٢-٢٥ سبتمبر ١٩٩١م.

٧ حيث أنها جزء من قارة جندوانا القديمة: (Gunduana Land)

٨ حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص: ٩٣

٩ المرجع السابق والصفحة

× وكان ذلك في شهر سبتمبر ١٩٠٩ بدأ بفصل تدريب المدرسين الوطنيين تدرس فيها: القراءة والكتابة بالهوسا، ومبادئ الحساب والجغرافية والرسم ومبادئ علم الصحة، ثم أضيف العربية والدين.

١٠ علي أبوبكر، الثقافة العربية في نيجيريا ص ٢٥٦ ط ٢ دار الأمة كنو نيجيريا، ٢٠١٤م

١١ الثقافة العربية في نيجيريا ص ٢٥٧ ط ٢

١٢ منها وصول الوفد المكون من الشيخ البشير الريح الذي أولا مكث حوالي أربعين يوما في مدينة كتسينا، و لما أدركو عدم تهيؤة الجو الأنسب لتأسيس المدرسة العربية، غادر الوفد تلكم المدينة راجعا إلى مدينة كنو المحروسة٥ و مكث هناك. مقابلة شخصية مع الأستاذ الدكتور الطاهر محمد داوود بمكتبه يوم الإثنين ٢٠١٥/٤/٢٧ صباحا

١٣ الثقافة العربية في نيجيريا ص ٢٥٨

١٤. علي أبوبكر: الثقافة العربية في نيجيريا، وكذا شيخو أحمد سعيد غلادنثي، حركة اللغة العربية